الاغتراب والتفكك الأسري هما السبب

أبناء لا يعرفون آباءهم

تحقيق/افتكار القاضي

□ تجاوز أعمار البعض منهم العشرين ربيعاً وهم لا يعرفون آباءهم، ليس لأن آباءهم توفوا وهم أطفال أو في بطون أمهاتهم، بل إنهم أحياء يرزقون، لكن الخلافات الأسرية والاغتراب عن الوطن لفترات طويلة يكبر خلالها الأبناء بعيدين عن آباء لا يعرفونهم إلاّ من خلال الصورة الفوتوغرافية المعلقة على حائط المنزل أو من خلال الصوت عبر الهاتف.

حالة كهذه تجسد الشعور بالحزن والألم لدى هؤلاء الأبناء وهم يشاهدون أقرانهم مع آبائهم بينما لم يستمتعوا مرة واحدة برؤية آبائهم، ويتحول هذا الشعور بالنسبة لهم إلى كابوس، الأمر الذي يولد انعكاسات نفسية سيئة لديهم تؤثر على حياتهم ومستقبلهم.

«محمد يعقوب» شاب تجاوز الـ (٢٣) عاماً من عمره لكنه لم ير وجه والده منذ ولادته، والسبب في ذلك أن والده هاجر خارج الوطن وهو ما زال في بطن أمه، وعندما كان الأب يعود بعد غياب طويل كان الابن يفر منه، وهكذا كان ينسى في كل مره ملاح ابيه ولا يتذكرها، والسبب في ذلك أن والده كان يجلس فترة بسيطة جداً لا يتمكن خلالها من استيعاب صورة والده أو شكله حتى ترتسم في ذاكرته.

يقول «محمد» : منذ أن وقعت عيني على الدنيا وأنا لا أعرف سوى أمي التي كنت أجدها إلى جواري دائماً في فرحي وألمي، أما والدي فلم أعرف عنه سوى انه مسافر وسيعود يوماً ما، وعندما كان يعود كنت أفر منه ولا أصدق أنه والدي، وعندما صرت شاباً أخبرتني أمي أن والدي أبلغها أنه سيعود بعد أسبوع، وطلبت مني أن أذهب معها إلى المطار لاستقباله، وترددت في البداية وكنت خائفاً وأنا أفكر كيف سأستقبله وهل سأعرفه من أول نظرة وكيف؟

أسئلة كثيرة ظلت تحاصرني واعتذرت عن الذهاب لاستقباله لكن أمي أرغمتني فذهبت معها، وعندما وصل إلى المطار أخبرتني والدتي أن ذلك القادم هو أبي، لم أحس بمشاعر اللهفة والشوق نحوه، كان استقبالي له بنوع من البرود لأنني لم أشعر معه بالعاطفة والدفء بسبب بعده عني وحرماني من حنان الأبوة التي افتقدتها طوال تلك الفترة وانعكست آثارها على حياتي بشكل مباشر وغير مباشر على الرغم من أن والدي حاول أن يسد كل ذلك الفراغ الذي خلفه قدر الإمكان، لكن الشعور بالفقد من الداخل لا يزال موجوداً، وإن قل عما كان عليه الحال قبل أكثر من (١٥) عاماً عندما كنت طفلاً وبحاجة ماسة لعطف والدي وحنانه وبقائه بجانبي.

لم تتذكر فبكت

□ الطفلة «ندى» ذات التسع سنوات تصف والدها بأنه طويل ووسيم ولا أحد يشبهه، وإن كانت لا تتذكر صورته جيداً لأنه هاجر قبل خمس سنوات للعمل في الولايات المتحدة الأمريكية.

تقول «ندى» : أكثر الأوقات التي أتمنى أن يكون والدي موجوداً عندما نقيم حفلة النجاح في المدرسة، حيث تحضر كل صديقاتي مع آبائهن وأكون أنا وحيدة فأشعر بالحزن، وكذلك في الأعياد عندما أرى صديقاتي وهن مع آبائهن في الحديقة وفي السوق أثناء شراء ملابس العيد.

وفي مدرستها طلب منها أن ترسم وجه أبيها فأخذت أدوات الرسم وبدأت ترسم ثم توقفت، وقالت : لا أستطيع أن أتذكر وجهه جيداً، وبكت.

شعور بالوحدة

□ أما «سامح» البالغ من العمر عشر سنوات، فإن آخر مرة رأى فيها والده كانت قبل ست سنوات وهو متألم ويشعر بالوحدة لغياب والده، لكنه لا يحب حتى أن يتصل به عبر الهاتف، لأنه - كما يقول - يريد أن يكون والده بجواره دائماً يدافع عنه من الآخرين الذين يعتدون عليه ويصرخون في وجهه ولا أحد يدافع عنه، ولو كان والده موجوداً ما تجرأ أحد على فعل ذلك.

«سامح» غاضب من والده ولا يريد أن يرسل إليه بشيء ما دام أنه لن يعود إلاّ بعد ثلاث سنوات أو أكثر، كما أخبرته والدته.

يقول «سامح» : لم أعد أعرف وجه والدي إلاّ من خلال الصورة التي تركها لنا قبل أن يسافر، وعندما يتصل ويتحدث مع والدتي يطلبني ويكلمني ويسألني عما أريده، وأنه أرسل لي هدايا وفلوس كثيرة، وكنت أفرح عندما يقول لي ذلك، لكنني أشعر بالحزن عندما أرى أصدقائي وهم مع آبائهم وخصوصاً في العيد، وعندما كنت أخبر والدتي كانت تصرخ في وجهي وتضربني، وتقول لي إن والدي هاجر من أجلنا حتى يجلب لنا المال، وأنه لو كان بقي معنا لما وفر لي كل ما أريده، لكنني لا أريد شيئاً، بل أريد أن يعود والدي ويبقى معنا، وقد طلبت منه ذلك في اتصاله الأخير بنا، ووعدني بأنه سيأتي في أقرب وقت، ولكنه تأخر.

خلافات أسرية

□ الخلافات بين والد «علي» ووالدته، والذي كان حينها لا يزال جنيناً في بطن أمه سببت الكثير من المشاكل بين الطرفين، مما أدى إلى هروب الزوجة من منزل زوجها ورجوعها إلى بيت أهلها البعيد عن قرية زوجها، وهناك وضعت ابنها الوحيد «خالد» وكرست كل حياتها لتربيته وتعليمه حتى صار شاباً وهو لا يعرف عن والده شيئاً سوى أنه ما زال حياً، لكن لا يدري أين هو، هل ما زال في اليمن أم لا؟!

يقول «علي» : منذ أن عرفت نفسي وأنا بغير أب، لكن والدتي كانت هي الأم والأب في وقت واحد، وكنت أعتبر أن جدي هو أبي، خصوصاً وأن اسمه على اسم والدي، وعندما كبرت وعرفت الحقيقة تألمت كثيراً وحزنت على نفسي لأن والدي لم يسأل عني حتى مجرد سؤال، وهو ما كان يضايقني ويسبب لي الكثير من الإحراج أمام زملائي الذين دائماً ما يسألوني عن والدي : أين هو؟ ومتى سيأتي؟ وغيرها من الأسئلة التي لا أعرف الإجابة عنها، وهو ما يجعلني أحقد عليه وأكرهه بشدة، بل إنني أعتبره في عداد الموتى، خاصة عندما ثبت لي أنه متزوج من امرأة أخرى وله العديد من الأبناء الذين لا أعرفهم ولا يعرفون أن لهم أخاً أكبر.

ويتساءل «علي» : أي أب هذا الذي لا يسأل عن ابنه ولا يهمه من أمره شيئاً، وكأنني لست ابنه وحسبي أن أمي نذرت حياتها من أجلي ووفرت لي كل ما أحتاجه، أما والدي - سامحه الله - فلا يربطني به سوى الاسم.

«نجلاء» ذات الأحد عشر ربيعاً، عندما تتحدث إليها وتسألها من هو والدها وما اسمه تهز رأسها : لا أعلم، وتلاحظ في عينيها حزناً شديداً لأنها لم تعد ترى وجه والدها منذ أن غادر البيت قبل عدة سنوات، حيث كانت حينها طفلة صغيرة، وعندما تسألها الآن : ابنة من أنت؟ تجيب قائلة : أنا بنت أمي، وهي بهذه المقولة تؤكد شدة حقدها على والدها، بل وتكره ذكر اسمه على لسانها لأنه تركها مع والدتها وإخوانها دون أن يخبرهم أين سيذهب ومتى سيعود، وكل ما قاله قبل سفره بعد أن حدثت خلافات بينه وبين زوجته وأسرته أنه سيترك اليمن دون رجعة، وحدث ما قاله، فمنذ تسع سنوات لا أحد من أبنائه أو إخوانه يعلم عنه شيئاً، وتعيش زوجته مع أبنائها الثلاثة في منزل والد الأب.

رأي الآباء

□ عندما يرى عبده محمد، المغترب في دولة الإمارات العربية المتحدة دموع زوجته وابنته وهما تودعانه في المطار يقطع لهما وعداً بالعودة في أقرب فرصة، وأنه لن يطيل غربته أكثر من عام، لكن متاعب الحياة ومشاغلها تنسيانه هذا الوعد كما يقول.

ويضيف : الأجر الذي أتقاضاه لا يسمح لي بزيارة الأهل كل عام، فأنا أريد أن أجمع ما أستطيع جمعه من مال لأفتح لي محلاً تجارياً في بلدي يمكنني من البقاء والإنفاق على أسرتي وعدم السفر مرة أخرى.

ويؤكد عبده محمد، الذي عاد بعد غياب دام سبع سنوات، أنه يظل على تواصل مستمر مع زوجته وأبنائه عن طريق التليفون والرسائل «كيف أنساهم وأنا أغترب في الأساس من أجلهم وأوفر لهم كل ما يحتاجون إليه».

أحمد قاسم، المغترب في مملكة البحرين، لا ينكر أنه وبعد أن اغترب لأول مرة وبقي خلالها ثمان سنوات لم يتعرف عند عودته على ابنه الذي تغير شكله وصار شاباً بعد أن كان قد تركه وهو لا يزال طفلاً في السابعة من عمره.

يقول «أحمد» : عندما استقبلني ابني «سامي» في المطار مع والدته لم أتمكن من معرفته وصافحته مصافحة عادية على أنه أحد الأقارب الذين جاءوا مع زوجتي إلى المطار، وفوجئت بوالدته تقول لي : هذا ابنك «سامي» ألم تعرفه؟ عندها صرخت وأخذته واحتضنته بشدة وقبلته بحرارة وأنا غير مصدق أن ابني قد أصبح شاباً هكذا رغم أنني لم أكن منقطعاً في التواصل معهم، لكن ما أسرع الأيام والسنين التي تمر كأنها لحظات.

ويضيف : الحمد لله أن ولدي صار شاباً يعتمد عليه وكل اغترابي كان في الحقيقة من أجله وبقية إخوانه حتى لا يضطرون للغربة والتعب مثلنا، وقد وفرت لهم ما يؤمنون به حياتهم ومستقبلهم في بلدهم.

أما عبدالله الحمزي، المغترب في المملكة العربية السعودية، فيرى أنه من غير الممكن أن يأخذ أبناءه معه ليتخلص من الحاجز الذي يحول بينه وبينهم.

يقول الحمزي : لقد فكرت كثيراً بأخذ أسرتي معي إلى حيث أعمل، لكنني كنت أتراجع عن هذا القرار عندما أفكر بنفقاتهم وبما سأصرفه عليهم وبإيجار البيت والاحتياجات الأخرى، وأدركت أنني لن أستطيع - في ظل الراتب الشحيح الذي أتقاضاه من عملي - جمع أي مبلغ نستفيد منه مستقبلاً، ومع أنني أعود كل ثلاث إلى أربع سنوات ويكلفني هذا الكثير، إلاّ أن الأبناء لا يجعلوني أحس بالقرب المفروض أن يكون بيننا، وأشعر أنهم يخافون مني ولا يحبون أن أعرف الكثير عنهم، وبعد أن أكون قد أقمت بينهم شهراً أو أكثر أتركهم وأقفل راجعاً إلى مكان عملي وقلبي يتمزق على فراقهم.

عواقب وخيمة

□ علماء النفس والاجتماع يتفقون على أن من العوامل الكبرى التي تؤدي إلى انحراف الولد وإلى فساد خلقه وانحلال شخصيته تخلي الأبوين أو أحدهما عن رعايته لأبنائهما، وهي مسؤولية مشتركة بين الآباء والأمهات، وإن كانت مسؤولية الأمّ أهم وأخطر باعتبار أنها ملازمة لولدها منذ الولادة إلى أن يشب ويترعرع، وقد أفرد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم الأمّ بالمسؤولية، حيث قال : «المرأة راعية في بيت زوجها ومسؤولة عن رعيتها»، فإذا قصرت الأمّ في الواجب التربوي نحو أبنائها لانشغالها أو أهمل الأب مسؤولية التوجيه والتربية نحو أبنائه لانصرافه واغترابه عنهم سينشأون نشأة غير صحيحة نفسياً وسلوكياً ويرون أن اغتراب الآباء عن الأبناء والعزل الوجداني والعاطفي والفكري للأبناء يعتبر أحد أسباب الانحراف والضياع، ويؤكدون أن الاغتراب الأسري له انعكاساته على الأبناء لما يترتب عليه من مخاطر أكبرها ضياع الأبناء وأقلها «آباء بلا عاطفة» أو «أطفال مشردون».

أشواق الأحد

عبدالكريم الخميسي

كلمة حق

■ هل يستطيع أحد منا أن يعيش في هذه الدنيا بمفرده؟! الجواب : طبعاً : لا .. ذلك لأنه لن يجد طعاماً يأكله، ولا ماءً يشربه، ولا ثوباً يلبسه، فيموت حتماً، وينقطع نسله، ويختفي أثره إلى الأبد.

■ إذاً .. فإن وجودي ضروري لغيري، ووجود غير ضرورة لي .. وبالتالي فإن حفاظي على حياة الآخرين هو في نفس الوقت حفاظ على حياتي، كما أن حرص الآخرين على حياتي هو أيضاً حرص على حياتهم، أي أن المصلحة مشتركة، وهذا هو المعنى الذي ينطوي عليه مبدأ : التكافل الاجتماعي.

■ وإذا كان «التكافل الاجتماعي» ضرورياً لبقاء الجنس البشري في كل زمان ومكان، فإنه قد أصبح اليوم من أوجب الواجبات، بعد أن سادت شريعة الغاب في معظم المجتمعات الإنسانية المعاصرة، بفعل «العولمة» التي حولتنا إلى مجتمعات «سمكية» يأكل الكبير فيها الصغير، ويفترس القوي فيها الضعيف، تحت شعار : البقاء للأقوى..!!

■ وليس أمامنا اليوم إلاّ أن نتفادى هذا المصير، ونبادر للاحتماء بحصن «التكافل الاجتماعي» الذي حث عليه الدين، وأوجبته الضرورة، وهنا لابد من «كلمة حق» تقال .. وهي أن بلادنا شهدت في ليالي وأيام شهر الصوم المباركة نشاطاً «تكافلياً» غير مسبوق، كان له الأثر الإيجابي على حياة الشريحة المعدمة في جميع أنحاء الوطن.

■ وبقدر اعتزازنا بهذه الظاهرة الكريمة، فإننا نأمل أن لا تقتصر على شهر واحد في السنة، وأن لا نكتفي بمنح الجائع سمكة، بل يجب أن نعلمه كيف يصيد السمك.

ص. ب: ٤٨٤١ صنعاء
alkhmisy@hotmail.com

تأملات

محمد العريقي

مشاريع الشباب

■ «النار لا تحرق إلاّ رجل واطيها»، ربما هذه المقولة، التي هي جزء من بيت شعر لأحد الشعراء العرب، تنطوي على أبعاد ومغاز كثيرة تحتاج من كل شخص أن يتدبر ويتأمل فيها.

■ ولو وقفنا أمام مشاكل وهموم الشباب، فإننا سنجد أنفسنا أمام رزمة من التعقيدات والمعضلات التي تحد من رسم مستقبل واضح لأي شاب، وهذا ما جعل بعضهم ينصرف إلى التمرد على قيم الذات أو اتباع أساليب اللهو والضياع، والبعض منهم يبحث عن أقصر الطرق للوصول إلى الهدف حتى وإن كان على حساب القيم ومبادئ الأخلاق، والبعض الآخر منتظراً ماذا ستعمل له الدولة ومؤسسات المجتمع، وآخرون وضعوا مستقبلهم تحت تصرف ذويهم للتحكم فيه وتحديد مساره.

■ وبما أن الشباب يعيشون واقعاً متماثلاً في الطموح والهموم، فبإمكانهم شق مخاوف المستقبل بجهد مثابر ومنسق للحاضر على ضوء عبر وتجارب الماضي.

■ فتراثنا يحمل الكثير من مشاهد الإرادة والتصميم للآباء والأجداد الذين شحذوا أذهانهم وشمروا سواعدهم فأبدعوا وأنجزوا معالم جبارة غطت جزءاً كبيراً من طموحاتهم واحتياجاتهم، فالشباب بالدرجة الأولى بحاجة إلى تجديد روح الاعتزاز بالتراث الإبداعي والعملي.

■ والنقطة الثانية هي الانطلاقة في جو تنافسي شريف وخلاق، أدواته العلم والمعرفة والابتكار والإرادة الصلبة والتحدي للتغلب على أي صعوبات وتحقيق الأحلام والأمنيات بالمثابرة والاجتهاد والاستفادة من تجارب الآخرين.

■ بإمكان الشباب، بعد أن تهيأت لهم وسائط كثيرة للوصول إلى منابع العلم والمعرفة ومصادر الحركة والتحرك التي تسهل لهم وضع الخطوات الأولى على طريق بناء المستقبل، أن يتعاونوا ويتكاملوا في إقامة المشروعات المشتركة ويتبادلوا الأفكار النافعة، وبهذه الطريقة تنقشع غيوم الكآبة والإحباط من أمام وجه أي شاب يبحث عن أول خطوة باتجاه المستقبل.

lariky@maktoob.com